تصحّ نسبة هذين القصرين للرومان فلا سبيل الى القول بان المشتى من عملهم لما بينهما وبينهُ من شبه الهندسة . فهذه هي الاسباب التي حملتنا على عَزْو المشتى لبني غسّان بناءً بامرهم مهندسون روميُّون كبقيّة عمائر البلقاء . هذا رأينا والله اعلم

زينب (الزبّاء) ملكة تدمر

للاب سبستيان رتزقال اليسوعي

(تابع لما سبق)

فلم يجاوب شابور على أُطلبة أذينة بل تجبَّر وتكبَّر وامر بحرق الرسالة ورمي الهدايا في الفرات

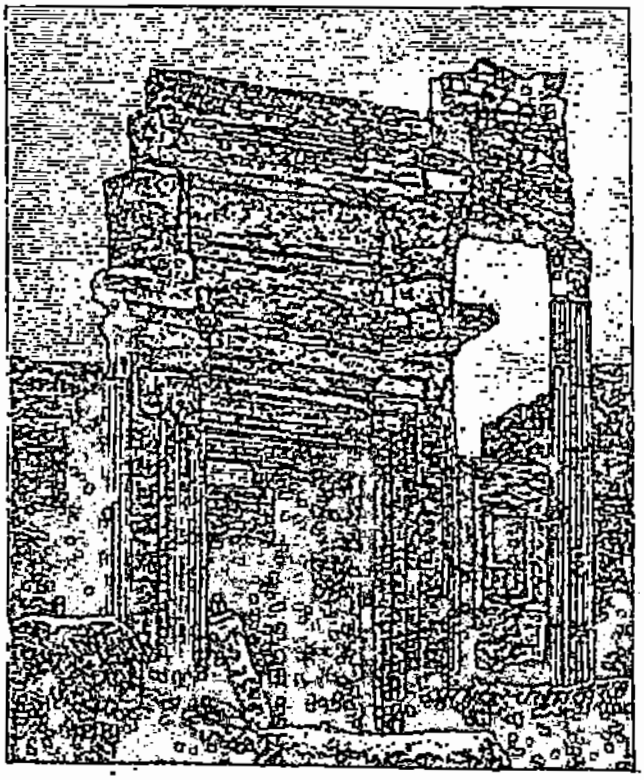

مدخل قصر أذينة وزينب (عن صورة شمسيّة)

فلمّا رجع رُسُل أذينة الى تدمر واعلموهُ ما كان من امرهم فار فارُهُ وتلظّى غيظاً ثمّ صمّم على الانتقام من شابور وتأهّب لمحاربة الفرس وانتدب لذلك قبائل العرب فلبّوا

الى دعائه وطاروا اليه زرافات لجمعهم بظاهر تدمر وولّى وقاستهم ابنهُ هروديس (وامهُ غير زينب) . وضمّ اليهم فرسان تدمر وقوّاسيها وجعلهم تحت امر زَبْدا كبير قوّاده وزبّاي زعيم فرسانه (١ وحشد معهم الكتائب الرومانية التي كانت وقتئذٍ في الاقاليم الشرقية وألحق بهم بعض الجند الذين افلتوا من هزيمة ولريانس وتوجه توًّا الى المدائن

وكان شابور بعد ان دوّخ عساكر القيصر قد اخذ يغزو الانحاء الشمالية واوقع في

---

١) وكان زبدا (זבדא) وزبّاي (זבבי) من آل سيتيسية اي من قرابة أذينة . (راجع Schröder p. 20 و V. 28 ولا شكّ في انّ المؤرخين الذين قالوا ان زينب كانت اختًا للزباء شُبّهت عليهم الاسماء فنسبوا لاخت ملكة تدمر ما يصحُّ عن بعض انسبائها وهو زبّاي القائد المذكور كما انهم نسبوا لزبّاي هذا (بصورة الزباء) كل ما فعلتهُ ملكة تدمر وكان عرب الجاهلية يعرفون زبّاي القائد حق المعرفة لكثرة ما كان بينهم وبينهُ من العلائق في امور الحرب والغزو . فاتى خلفهم بعدهم ولم يفرقوا بين هذه الاسماء . وذلك على الرأي الأعمّ مصدر الاغلاط التي وقعت في تآليف العرب بصدد اسم زينب وجنسيتها واخبار اختها الموهومة وقوّادها

وهنا يحسن بنا ان نعود الى ذكر القناة الرومانية (راجع مقالتنا الاولى ص ٦٣٥) المبنيّة بجوار بيروت التي ينسبها بعض السوريين الى زينب وغيرهم الى زُبَيدة . فخلطوا ايضًا بين الاسمين وشطّوا في المقال . نعم اننا لا نجهل انّ لزينب ملكة تدمر ولزبيدة زوجة هرون الرشيد السُمعةَ الطائرة في انحاء الشرق اشتهرت كلتاهما بجمالها وآثارها العديدة الّا انّ بينهما ايضًا تباينًا عظيمًا . فان قيل ان اهل سوريّة نسبوا الى زُبَيْدة بناء هذه القناة لانّها بنت قناةً اخرى لاستجلاب مياه بعض العيون الى مكّة فخلطوا بين القناتين أجبنا انّ في هذا الامر لنظرًا لانّ اهل سواحل الشام يجهلون مثل هذه الاخبار التي لم يروها الّا بعض افراد المؤرخين وان قيل ان السوريين لاسيما النصارى منهم يتناقلون بينهم اخبارًا عجيبة في شأن زُبيدة (راجع المكتبة الشرقية للسمعاني ٣ : ١٦١) قلنا ليس ذلك بسبب كاف لأن ينسبوا اليها بناءً لم تشيدهُ بل لم تعرف وجودهُ في وادٍ من اودية جبل لبنان

وان سألنا احدٌ عن رأينا أجبنا مستندين على رأي العلّامة دي ڤوكويه (n° 84) ان الاهلين ارادوا بزبيدة لا زوجة هرون الرشيد بل ملكة تدمر . لكنهم خلطوا بين اسمها الصحيح بَت زَبِينة (راجع ص ٦٣٩) وبين اسم آخر يشبههُ غاية الشبه وهو بَتْ زَبَّيْدَة بدل النون دالًا . وهذا التصحيف قد سَهُل انتشارهُ بين العامّة لانّ اسماء كثيرة تدمرية وردت على هذه الصورة الاخيرة . ثمّ شاع بعدئذٍ اسم زينب على هيئته الاخرى اليونانية (راجع ص ٦٣٩) . فلمّا سمع المخلّف هذين الاسمين ظنّوا انّ المراد بزبيدة زوجة هرون الرشيد وكانت اذ ذاك ألسنة الجميع تنطق باعمالها وتتغرّب بالثناء عليها مع ما ورد من ذكرها في حكاية الف ليلة وليلة

وهو الذي شيَّد مجد البيت مع ناصر الدين الحسين ولو لم يكن الّا عمائرهما لكان لهما بها المجد الوافر

وقد وجدت بخطّ بعض السلف: حضر ابن ودود (كذا) وابن حاتم (١ الى العرب وصحبتهما العساكر وجمعا عليهِ المشران من ولاية بعلبك والبقاعين فكسرهم اولاد امير العرب ونهبوهم ثمّ امّنوهم وخلّوا سبيلهم وذلك بقرية عيتات اليوم الثاني من شهر ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وستمائة (١٢٥٩ م). وسمعتُ ممّن لهم دُربة باخبار الناس انّ زين الدين المذكور كان سبب كسرتهم ولهُ في هذه الكائنة شهرة كبيرة

(قلتُ) وهذه الكائنة حدثت في ايّام الناصر يوسف سلطان الشام والمُعزّ ايبك التركماني سلطان مصر (٢ كان بينهما خلف وحرب وكانت الفرنج بالسواحل (٣ والمظنون عليهِ انّ الشاميين كانوا قد نسبوا امراء العرب الى المصريين فعملوا معهم ذلك. ومن الدليل (٢٩) على ذلك وجود المنشور الذي من المعزّ ايبك باسم سعد الدين خضر المقدَّم ذكرهُ في ترجمة سعد الدين المذكور وقلنا انّ الفكر يتحيَّر فيهِ لكون بيروت من الشام والمنشور مصريّ. وكان الناصر يروم اخذ مصر والمعزّ يروم قهر الناصر وبقي الامر بينهما على المنازعة حتى مشى بينهما نجم الدين الباذرّاي (٤ فاصلح بينهما واتّفقا على ان الشام الى العريش (٥ تكون للناصر والديار المصرية للمعزّ وذلك في سنة ثلاث وخمسين وستمائة (١٢٥٥ م). وقد تقدَّم ذكر قتل المعزّ بمصر وقتل هولاكو للناصر. ثمّ استقرَّ بعد المعزّ في مملكة مصر قطز (٦ ثمّ خرج قطز بالعساكر المصرية لقتال التتار

كان مولدهُ في اواخر ايّام ابيهِ وكان لهُ اخٌ يسمّى بحترًا سمّي جدّهِ وكان اكبر من زين الدين المذكور بسنين كثيرة لانهُ كان رجلًا يتصرَّف لنفسهِ في سنة اثنتين وستمائة (حسب ما تقدم ذكر المكتوب) بنصف قدّان من رمطون والله اعلم. فزين الدين بن علي المذكور قد شُهر عنهُ انّهُ وُلّي بيتاً صغيرًا عند جمال الدين حجي وسعد الدين خضر ولدي محمّد بن محمّد فكان عندهما وتزوَّج اختهما صادقة وسكن عراموت. وقد سبق ذكرهُ وبيّنّا عنهُ انهُ كان اصغر سنًّا من جمال الدين وسعد الدين والله اعلم

١) لم نطّلع على شيء من اخبارهما ٢) راجع ص ٥١٦ و ٥٦٥

٣) قال المؤلف في ذيل كتابهِ: «ولم أطّلع على موجب ذلك»

٤) لم نجد لهُ ذكرًا في التاريخ

٥) العريش مدينة من اعمال مصر بقرب حدود الشام

٦) هو ثالث ملوك الترك في الديار المصرية. كان من مماليك المعزّ ايبك ورقي في دولتهِ

وسمعتُ ممّن لهُ دُرْبَةٌ باخبار الاوائل بانّ زين الدين بن عليّ كان قد توجّه الى التتار لمّا استولوا على دمشق وكان كتبغا نويز (١ نائباً عن هولاكو. فخاف زين الدين منهم وتوجّه اليهم اكتفاء من شرّهم. وكان جمال الدين يحيى بن محمّد بن يحيى قد تقدمهُ اليهم كما ذكرنا. فلمّا بلغهما خبر قدوم قُطُز بالعساكر المصريّة تشاورا وحصل بينهما اتّفاق على ان يتوجّه زين الدين الى العسكر المصري ويقيم جمال الدين عند التتار بدمشق حتّى اذا انتصر احد الفريقين سدَّ المُنتصِر خلّة رفيقهِ وخلّة البلاد قصدهما بذلك اصلاح الحال. فحضر زين الدين القتال الذي صار في عين الجالوت (٢ بين عسكر مصر والتتار يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ثماني وخمسين وستمائة (١٢٦٠ م). فانهزم التتار وتحصّن منهم شرذمة (٢٩ في ذروة الجبل. فكان زين الدين المذكور مع مماليك السلطان في حصار التتار وكان يرمي عن قوس قويّ فاعجب مماليكَ السلطان رميهُ وصاروا يقدّمون لهُ النشّاب من تراكيشهم (٣ ثمّ حضر قدّام السلطان وكان اشتهر مجيئهُ الى التتار فشهد لهُ مماليكُ السلطان رفقتهُ في حَصر التتار في ذروة الجبل بما فعلهُ فعفا عنهُ. وكانوا قد قدّموا بين يدي السلطان الملك المسعود صاحب الصُّبَيبة (٤ من ملوك بني أيّوب وكان غير مشكور السيرة لموافقتهِ للتتار على الفساد فضُربت رقبتهُ

وذُكر عن زين الدين المذكور انّهُ قال: واللهِ ما خفتُ في يوم اكثر منهُ. وذكروا عنهُ انّهُ قال كان يوم الوقعة يوم عظيم وكان مع العسكر ثلاثمائة حمل طبلخانات لم يُسمع لدقّها صوت البتّة لعظم صوت الضرب بالسلاح على التراقل (٥ والخُوَذ وصراخ الرجال.

ثمّ صار اتابك العساكر في ايّام الملك المنصور عليّ ابن المعزّ فلمّا خُلع المنصور تسلطن قُطُز سنة ٦٥٧ (١٢٥٩ م) وتسمّى بالملك المظفّر وحارب التتار فنظيم عند عين جالوت وفي بيسان. وقُتل بعد انتصاره بقليل قتلهُ الامير ركن الدين ظاهر بيبرس بموافقة الامراء بعد سنة للملكهِ

١) كتبنا هذا كان احد امراء هولاغو ملك التتار استنابهُ على البلاد الشاميّة ثمّ قُتل سنة ٦٥٨ (١٢٦٠ م) في عين جالوت لمّا ظفر المسلمون بالتتار. ويقال لهُ في كتب التواريخ كتبوغا نويز بك (راجع تاريخ ابن اياس الجزء الاوّل ص ٩٨)

٢) هي مدينة صغيرة بين بيسان ونابلس من اعمال فلسطين

٣) التَّرْكَش فارسيّة هي الجعبة

٤) تظن انّهُ يريد الملك السعيد ابن الملك العزيز عثمان الأيوبي صاحب الصُّبَيبة وهي قلعة في شمالي شرقيّ بانياس على ميل منها

٥) لعلّهُ يريد بالتراقل الدروع. والتَّرْقَل في الاصل قميص بلا اكمام

وفتح نصيبين وحرّان وضمّها الى اقاليمه واخذ منهما بعض الجنود فبادر الى محاصرة المدائن. فخاف شابور على حاضرة ملكه وندم على ما فرط منهُ في حقّ أذينة اذ ردّ رسلهُ ورفض معاهدتهُ ولكن فات حين ندم. فلم يبقَ للملك الفرس الّا ان يتلافى الامر فجمع التدمريين من غزو مملكته. فندب لذلك جميع مرازبته وارسل المجوس الى اقاصي فارس ليحرّضوا اهل دولته على قتال أذينة والرومان فجمعوا لهُ عسكرًا كثيفًا واستعدّوا للقتال. وما كاد أذينة يصل الى جوار المدائن حتى التقى الجمعان واشتدّ القتال وحمي الوطيس وكانت الغلبة للتدمريين فولّى شابور هاربًا الى عاصمته تاركًا نساءهُ وحشمهُ (٢٦١ م). فتبعهُ أذينة وتقدّم بحصر تلك المدينة المشهورة التي كانت تُعدّ وقتئذٍ من اجمل مدن الشرق واحصنها(١ فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وآلات الحرب فاشتدّ الامر على كسرى وذويهِ حتى كاد يلتمس منهم الأمان

الّا انهُ قد اتت لأذينة اخبار كدّرت نفسهُ واقتضت انقطاعهُ عن محاصرة المدائن. فان مكريانس ذلك القائد المحتال الذي خان ولريانس كان قد صمّم على اغتصاب منصّة القياصرة. وقد شجّعهُ على عزمه الشنيع كاليستوس القائد الذي ردّ شابور عن قيليقية. فسماهُ مكريانس واليَ الجندية (Préfet du prétoire) اي نائبهُ الاعلى في سياسة الامور المدنية والعسكرية واتّفقا معًا على استمالة العساكر الرومانية فبويع لمكريانس في بلاد آسية الصغرى ومصر ولاسيّما في الاسكندرية حيث ضرب هذا المغتصب نقودًا عديدة تشهد الى يومنا بفتحهِ وسوء تصرّفهِ

وكانت في تلك الايام مملكة الرومان في اضطراب عظيم وقلق جسيم لم يُرَ مثلهُ في ما مضى من الزمان. فكان يُستوموس قد خرج على غاليانس (٢٦١ م) وقتل ابنهُ

١) راجع زوزيموس ١ وتربيليوس Trig. Tyr. 14, Gall. 3 وقد اكثر العرب من وصف المدائن واسترسلوا في ذكر ايوان كسرى وبنائهِ العجيب قال البحتريّ (راجع ديوانهُ ص ١٠٨)

وكأنّ الايوان من عجب الصنعة جَوْبٌ في جنبِ أرعنَ جَلْسِ
مُشمخِرٌّ تملو لهُ شُرُفاتٌ رُفعت في رؤوس رَضْوى وقُدسِ
ليس يُدرَى أصُنعُ إنسٍ لِجنٍّ سكنوهُ ام صُنعُ جنٍّ لإنسِ

فللجنّ كما ترى اليد الطولى في امور البنيان عند فحول شعراء العرب نسبوا اليهم ايوان كسرى كما نسبوا ابنية تدمر وبعلبك وغيرها من اعمال الحيابرة

سالونينوس واختطف الاقاليم الغربية واما مكريانس الخائن فكان بعد اغتصابه الاقاليم الشرقية ارسل بيزون احد قوّاده الى محاربة والِنس والي اخائيَّة من بلاد اليونان. فلمَّا علم والِنس انَّ بيزون زاحفٌ اليه ناوياً مبارزتهُ ادَّعى الملك لنفسه وبايعتهُ العساكر التي كانت تحت امره. فتخوَّف بيزون من تقصير يقع به اذا تعرَّض لهُ ودخل ولايتهُ فوقف في بلاد تسالية واستمال اليه جنودهُ ولم يزل يستعطفهم حتَّى اختاروهُ لهم ملكاً وخوَّلوهُ رتبة القيصر. وكذا فعل قائد آخر يسمَّى أريولوس بنواحي إلّيرية وهذا مثالهم قائد رابع استمَّهُ اميليانس بالاقطار المصرية

وبينما كان هؤلاء الخوارج يكدّرون صفاء كأس الدولة ظهر القوط وغاروا على ولايات ثراقية واخائية وسواحل آسية الصغرى فنهبوا البلاد وفتكوا بسكّانها وقوَّضوا الابنية ومن جملة الآثار التي خرّبوها هيكل مشهور في مدينة افسس مختصّ بعبادة الإلهة «ديانة» وكان هيكلاً بديع الصنع يُعدُّ من عجائب العالم السبع. وفي تلك الاثناء برز قوم اخر من البرابرة يقال لهم الهيرول (Hérules) واخذوا يغزون جزائر الارخبيل وشواطئ بلاد اليونان. وزد على ذلك زلازل عديدة طرأت على انحاء المملكة فانهدمت من جرّائها عدَّة مدن مع ما سرى من انواع العاهات والعُدوى التي ارتعدت لها فرائص الامم (١. ولسوء الحظّ لم يكن على عرش رومة من يقوى على مقاومة الخوارج واصلاح الفساد الذي استشرى في المملكة. وكان ولريانس معتقلاً لم يزل في ايدي شابور مع ما بذل أذينة من الجهد في استنقاذه من العبودية والهوان (٢ اما غاليانس فانهُ لم ينهض باعباء السياسة نهوضاً لائقاً (٣ رغماً عمَّا وصفهُ به بعض المؤرّخين من الحزم والقوَّة بل بقي متردّدًا في امره لا يدري كيف يسدُّ الخلل ويضمُّ متفرّق النَّشر وعليه فكنتَ ترى المالك يتفاقم فيها الفساد فتستقلّ اقليماً بعد آخر حتى انَّ المؤرّخين سمّوا هذا الزمان عهد الثلاثين ظالماً (٤ (ستأتي البقية)

---

١) وفي ذلك الوقت ظهر الوباء المسمَّى الطاعون الشرقي فانتشر في الاقاليم الشرقية لا سيما في بلاد مصر فاصاب هذا الداء الهائل جمًّا غفيرًا من اهلها اغتالهم المنية بعد ان اذاقتهم مرّ النكال

٢) قيل ان ولريانس مات حتف انفه في نحو السنة ٢٦٢ الَّا ان شابور لم يزل ينكّل به حتَّى الممات. فلمَّا قضى نحبهُ دبغ جلدهُ وصبغهُ بلون احمر وعلَّقهُ في معبدٍ من معابد فارس استضعافاً لشأن الرومان (راجع Petrus Patric. *Excerpta*, p. 26 و Lactant. *De morte persec.* §

٣) راجع تريبيليوس *Gall. duo* 16, 17, 21

٤) اطلق الكتبة هذه التسمية على ذلك العهد معرّضين بالثلاثين متعصباً الذين ظهروا في اثينة لكنَّ ذلك لا يطابق واقع